وضع المسألة اليهودية في اطارها التاريخي الصحيح، عندما دعا الى البحث «في سر الدين في اليهودي الواقعي»[٣٦]، أي في الدور الاجتماعي ـ الاقتصادي لليهودي في المجتمع. فالصراع بين اليهودية والمجتمع المسيحي هو صراع اجتماعي ـ اقتصادي في الاساس؛ فاليهودية ليست منفصلة عن المجتمع، انما في صميمه: «لقد عاشت ليس ضد التاريخ، وانما في التاريخ»[٣٧]. لقد رفض ماركس التفسيرات اللاهوتية. ومن هنا استخلص انه «يجب الّا نبحث في سر اليهودي في دينه، بل فلنبحث في سر الدين في اليهودي الواقعي»[٣٨]. بهذا يكون البحث في جوهر اليهودي قائماً في موقعه الطبقي الخاص في المجتمع المعني، وليس في دينه. فلا مشكلة يهودية بالمطلق في كل مكان وزمان. انها مختلفة تبعاً للدولة التي يعيش اليهودي في ظلها[٣٩]. وعلى هذا الاساس، فطرح المشكلة يكون مختلفاً.

ان تمسّك اليهود بدينهم لا يعود الى اخلاصهم الديني؛ بل، على العكس، ان محافظتهم كمجموعة متميّزة هي التي تفسّر تعلقهم بالايمان. لقد شكّل اليهود، عبر التاريخ، مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادي، الامر الذي أوجد كراهية مسيحية اوروبية لليهود في فترات تاريخية معيّنة: «لا يوجد شيء اسمه المسألة اليهودية شبه الازلية الموجودة منذ بداية التاريخ، والملازمة، باستمرار، لحياة اليهود في كل مكان وزمان وحيثما حلّوا. المسألة اليهودية ظاهرة اقتصادية ـ اجتماعية حديثة في الاساس ولّدها تطور النظام الرأسمالي الحديث»[٤٠].

وخلافاً لما يدعي به المنظرون الصهيونيون والسياسيون بأن التاريخ اليهودي عبارة عن سلسلة من الاضطهادات تعرض لها اليهود في كل الاوقات، متجاوزين تحديد الظرف التاريخي والبلد المعنيّ الذي حصلت فيه الاضطهادات، فان الوقائع التاريخية تدحض تلك الادعاءات. وبصدد ذلك، قال ابراهام ليون ان أوضاع اليهود استمرت في التحسّن منذ افول الامبراطورية الرومانية بعد انتصار المسيحية حتى القرن الثاني عشر. و«بانهيار الاوضاع الاقتصادية ازدادت اهمية الدور التجاري لليهود، حتى انهم شكّلوا، في القرن العاشر، الرباط الاقتصادي الوحيد بين اوروبا وآسيا»[٤١]. غير ان نمو المدن في اوروبا الغربية، ونشوء طبقة تجارية، وصناعية، ادّيا الى منافسة حادة لدور اليهود التجاري، بينما بقي وضعهم مزدهراً في بلدان شرق اوروبا، الاقل تطوّراً من بلدان غرب اوروبا. فالثورة البرجوازية في اوروبا الغربية، والوسطى، وهي تنسف البنى الاقطاعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كانت تدمّر، في الوقت عينه، الدور اليهودي المميّز منذ القرون الوسطى، فتمّ بذلك طردهم من المواقع التجارية، وتحوّلوا الى الربا. ومع تحوّل الاقتصاد الزراعي الى اقتصاد بضاعي، تمّ نسف مراكز المرابين أيضاً[٤٢]. وعلى الرغم من شعارات المساواة والحقوق المدنية لليهود في بلدان اوروبا الغربية، اصبح أمام اليهود الغربيين المطرودين من وظيفتهم الاجتماعية امّا الاندماج بالبرجوازية المحلية الصاعدة، وقد حصل ذلك في بعض الاوقات، وامّا الهجرة الى بلد آخر، بحثاً عن الدور الذي خسروه. فالفئات اليهودية من البرجوازية الصغيرة، والمتوسطة، فضّلت البحث عن بلد تمارس فيه وظائفها التقليدية، ودورها الاقتصادي المميّز، بعيداً من الاستثمارات الرأسمالية في الصناعة والزراعة والتجارة، فآثرت الهجرة الى اوروبا الشرقية، التي بقيت تحت هيمنة الاقطاع حتى القرن الثامن عشر، حيث «وجد الرأسمال التجاري والربوي امكانات هائلة للتوسّع في المجتمع الاقطاعي»[٤٣]. ففدت روسيا القيصرية، بهذه الهجرة، تستوعب أكبر تجمّع يهودي في العالم، في القرن التاسع عشر[٤٤]. لكن «بعد تطوّر الرأسمالية في القرن التاسع عشر (الرأسمالية هذه المرة، لا الرأسمالية الحرفية)، أخذ وضع يهود روسيا وبولونيا المزدهر بالارتجاج»[٤٥]. وفي روسيا القيصرية، «حظي الدور الاقتصادي لليهود بكراهية مثلّثة، من طبقة الفلاحين والطبقة البرجوازية